(٤)

صدق المعرفة ووحدة الوجود

العدد (١٨) جمادى الثانية (١٣٨٦هـ) سبتمبر (١٩٦٦م)

درجات المؤمنين في معرفة الله متفاوتة إلى حد بعيد.

ولا تقبل هذه المعرفة- ابتداء- إلا إذا كانت صحيحة، مطابقة للواقع.

فإذا شاب هذه المعرفة جهل فاضح كالشرك أو التجسيد ردت في وجه صاحبها ولم تغن عنه شيئًا.

والمعرفة الصحيحة مراتب، فالذي يعرف ربه معرفة واضحة غير الذي يعرفه معرفة غائمة.

ووضوح الرؤية للغاية المنشودة شيء آخر غير الاندفاع بإحساس غامض ونظر مختلط.

والمعرفة العميقة غير المعرفة السطحية، الأولى تبقى على اختلاف الظروف والأخرى قد تهتز مع الاختبارات العارضة.

والمعرفة الآلفة المستمرة غير المعرفة العابرة المارة.

فقد تعرف إنسانًا معرفة جيدة، وتنشغل عنه بأمور كثيرة أو قليلة، وقد تعرف آخر معرفة صحبة واستقرار.

والذي يعرف ربه كلما شعر بحاجة إليه، فإذا انتهت حاجته شغلته نفسه، غير الذي أنشأ علاقة مع ربه يتعهدها بالتحبب والتردد على ساحته، فهو موالٍ له معتز بصلته.

والمعرفة الموقنة الناشطة التي تجعل المؤمن يسارع في الخيرات، وينهض بالتكاليف غير المعرفة الكسول الوانية التي يصحبها التفريط في الواجب أو استثقال أدائه.

والمعرفة العاصمة من الدنايا الكابحة للجماح غير المعرفة المنهزمة أمام النزوات.

والمعرفة المورثة للتوكل على الله في مواطن القلق والفزع غير المعرفة التي تجعل المرء ضارعًا للخلق ذليلًا أمام أصحاب الحول والطول.

إن الإيمان يزيد وينقص، وآثاره في النفس والحياة تمتد وتنكمش.

والزيادة والنقصان ليسا في أصول المفهوم العقلي، وإنما في كمه وكيفه، فالصوت من الفم العادي يتضاعف ألف مرة عندما يمر بمذياع ضخم البوق بعيد الصدى.

والإيمان في بعض النفوس قد يتحول إلى حياة تصبغ الشعور والفكر وتهيمن على الحركات والسكنات، وتجعل صاحبها في نهار دائم من الأنس بالله وإلف عظمته.

ومن ثم لا يتفاضل المسلمون في أصل عقيدة التوحيد، وإنما يتفاضلون فيما يبلغه التوحيد في نفوسهم من أبعاد وآماد.

ومن الجور أن نسوي بين العميق والضحل، والمتين والضعيف.

وأقدار المؤمنين عند الله وحظوظهم من مثوبته تتبع درجات إيمانهم على ما شرحنا.

واكتمال الإيمان يوصل إليه بعد جهاد طويل، ورياضة متصلة.

ومن الخير أن نعترف بمدخل العناية العليا في هذا المضمار، فإن الفالحين يغرسون جميعًا لكن حصيلة الثمر في كف القدر.

وما من جهد يذهب هدرًا، حاشا لله، فهو القائل ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٦٩ ﴾ (**العنكبوت: ٦٩**).

والمشكلة ليست في أن الله جل جلاله يثيب من قصده، فهو مثيب مجيب،

وإنما الذي يجب أن يعرف بحسم أن العبد في هذا الميدان محتاج إلى سعة الفضل لا إلى ضمان العدل، وأن ما يأخذه إن كان أجرًا على عمل فلن يعدو المرء مكانه، أما إن كان تطولًا من ذي الجلال والإكرام فـ ﴿ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ (آل عمران: ٧٣، ٧٤).

ولذلك لا يسبق إلا فقير متجرد من الدعوى، متعرض للمنحة، متطلع إلى عطاء المنعم الواسع تبارك اسمه.

وإذا أحب الله إنسانًا رطب بذكره لسانه وأنعش به جنانه ويسّر له ما يرده إليه إن بعد، وما يقيمه على الصراط إن شرد.

والدرب الموصل إلى الله قد تكفل الإسلام بوصف مراحله ومعالمه، فليس هناك شيء وراء كتاب الله وسنة رسوله.

إلا أن عواطف الإيمان قد تهيجها عواطف مشابهة وإن اختلف سببها، وهذه طبيعة البشر، إذا غمرهم شعور ما، فإن هذا الشعور قد يجيش في جوانحهم بعد سكون لأبعد المثيرات.

وتأمل كيف يبكي متمم بن نويرة أخاه مالكا:

وقال أتبكي كل قبر رأيته

لقبر ثوى بين اللوى فالدكادك

فقلت له إن الشجا يبعث الشجا

فدعني فهذا كله قبر مالك

وجيشان العواطف المؤمنة عند جمهور العارفين هو الذي جعلهم ينقلون إلى ميدان الحق معاني قيلت ابتداء في مواقف تافهة وصغيرة.

ومن هنا ناجوا الله بقول الشاعر:

إن بيتا أنت ساكنه

غير محتاج إلى السرج

وجهك المأمول حجتنا

يوم يأتي الناس بالحجج

وهي أبيات من قصيدة في الغزل.

وكذلك ناجوا الله بقول الشاعر:

فليتك تحلو والحياة مريرة

وليتك تصفو والأنام غضاب

وليت الذي بيني وبينك عامر

وبيني وبين العالمين خراب

إذا صح منك الود فالكل هين

وكل الذي فوق التراب تراب

وهي أبيات قيلت في مدح سيف الدولة.

والحق أنه كثير على بشر أن يخاطب بهذه المعاني، فالله جل شأنه أولى من يناجى بها.

ولا نريد أن نقف عند تلك الخطرات، بل يهمنا أن نصف حقيقة العبودية التي تنضح بهذه المعاني، أو تتجاوب معها، وحسبنا في ذلك الكتاب والسنة.

إن القرآن الكريم ينقل الإيمان من ميدان التصورات النظرية المعزولة إلى ميدان الشعور الحي المأنوس الواقع.

ففي مجالسنا، حيث نسمر، أو نجد يجب أن نعد بين الحضور رب العالمين ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ

أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ (**المجادلة: ٧**).

وهذا الإحساس بالحضور الإلهي له نتائجه من رغبة ورهبة، والله جل شأنه يريد أن نشعر بهذه الهيمنة الشاملة، وأن نحسب حسابها فيما نفعل ونترك ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ...﴾ (**يونس: ٦١**).

وفي الخريف الماضي كنت جالسًا وحدي في حديقة تحت إحدى الشجرات، فسقطت علي ورقة جافة، فتلفت في مكاني أنظر هنا وهناك وعلى لساني قوله تعالى: ﴿ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ...﴾ (**الأنعام: ٥٩**).

قلت لنفسي إن الله يعلم بسقوط هذه الورقة الآن... وقلبتها بين أصابعي أتأمل في ظهرها وبطنها، وأتفرس في شبكة العروق اليابسة المنتشرة بين الوسط والأطراف.

ومددت بصري فإذا أوراق كثيرة ساقطة، ووجدت أني إن استطعت عد هذه الأوراق الكبيرة فمن المستحيل أن أعد الأوراق الصغيرة تحت الشجيرات الأخرى.

قلت ذلك وأنا بين بضع شجيرات في بقعة لا تذكر من أرض الله، فكيف بما تنفضه رياح الخريف في القارات الخمس؟

ثم قلت وعلم ذلك إن أعيى العادين في عصر واحد لكثرته الهائلة، فكيف بإحصاء ما تساقط على مر القرون من بدء الحياة إلى منتهاها؟

وأخذتني حيرة وروعة وأنا أتابع سلسلة هذه الصور، ثم وأنا أمسك مرة ثانية بالورقة الجافة وأتساءل: كيف نسجت مادتها وكيف تمت صباغتها.

إن الخضرة في وجهها هذا غير الخضرة في وجهها الآخر، ثم إن أطراف الورقة مزخرفة بمنحنيات متناسقة كثيرة.

وستعود هذه الورقة طينًا وتنبثق من ظلمات الأرض مرة أخرى ورقة ناضرة يانعة.. وهي في كل آن من هذه المراحل فقيرة الفقر كله إلى الخالق المصور الذي يتولى إيجادها.

إيجادها وحدها؟ كلا بل الألوف المؤلفة، والألوف المؤلفة في كل بستان وحقل، كان أو يكون.

وعدت أقرأ الآية كلها من جديد ﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا ...﴾ (**الأنعام: ٥٩**).

والقرآن الكريم مشحون بالمشاهد التي تعلم الناس «مقام الإحسان» والتي تدرجهم في مراتب العبودية على مقدار طاقاتهم العقلية والنفسية.

والفقيه في سيرة صاحب الرسالة صلوات الله عليه وسلامه يدرك أنه بلغ في عبوديته لله مدى من الاستغراق والإشراق تنقطع دونه همم الخلائق كافة.

وسنلمح إلى ذلك في مقال تال.

والأساس العقلي للشعور بوجود الله يقوم على ما تقرر في علم التوحيد من أن أقسام المعلوم ثلاثة «واجب» و«مستحيل» و«ممكن».

فالواجب يستحق الوجود في ذاته ولا يتصور عدمه.

والمستحيل يستحق العدم من ذاته ولا يتصور وجوده، والممكن ما لا يستحق من ذاته عدما ولا وجودا، وإنما وجوده إن وجد، من واجب الوجود وحده.

والعالم كله، ما نعرف منه وما لا نعرف، ما نبصر وما لا نبصر، من هذا القسم الأخير.

حياته عارية من غيره، تستوي في ذلك الجراثيم التي تسكن ألوفها المؤلفة رأس إبرة، والكواكب التي تتهادى في دارات الفضاء بين شروق وغروب، إنها جميعًا تستعير وجودها وحراكها ونظامها من الله ﴿ ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ

خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ (طه: ٥٠).

والشعور بهذه الحقيقة العلمية تجاوب مع الواقع الذي لا ريب فيه، ولعل ذلك ما أوحى بهذه الأبيات التي جرى بها قلم مؤلف لا أذكر اسمه:

الله قل، وذر الوجود وما حوى

إن كنت مرتادا بلوغ كمال

فالكل دون الله إن حققته

عدم على التفصيل والإجمال

من لا وجود لذاته من ذاته

فوجوده في الحق محض خيال

ونحن نزكي هذا الإحساس لكنا نلفت النظر إلى شطط يعتريه ويفسده، فمن حق الله ألا نغفل عن وجوده، ومن حقه أيضًا ألا نجحد أو نجهل ما أوجد.

بل إننا لن نعرف الله المعرفة الصحيحة إلا إذا درسنا العالم الذي خلقه وأودع في تضاعيف هذا الخلق دلائل عظمته، ومعاني أسمائه الحسنى.

والإيمان الذي دعا إليه القرآن الكريم هو ثمرة الدراسة الواعية للكون الكبير وما انبث في جوانبه من أحياء.

إنك تستطيع أن ترى الله في كل شيء، أي تستطيع أن ترى قدرته وإبداعه ومجده، وتستطيع أن تلمح أنه القيم على كل شيء، في أغوار الأرض وأبعاد السماء.

عندما أعلن الإحصاء الأخير لسكان الأرض ساورني خاطر محدود:

هناك أكثر من ثلاثة آلاف مليون إنسان يعيشون على ظهر هذه الكرة، قلت لنفسي: إن الله من وراء ثلاثة آلاف مليون عقل يجري فيها تيار الفكر

بطيئًا أو قويًا، ترى فيم يفكر كل واحد من هؤلاء؟

ومن وراء ثلاثة آلاف مليون قلب تجيش بالرضا أو القلق، بالفرح أو الحزن، بالرجاء أو اليأس، ترى ما يشغل كل قلب من هذه القلوب؟

من وراء ثلاثة آلاف مليون جسد تغلي الحياة في أعضائها ويجري الدم في عروقها وتنقبض وتنبسط بالزفير والشهيق رئاتها.

ما أكثر هؤلاء! ومع ذلك فالله من ورائهم محيط ولأمورهم مدبر وفوقهم قاهر وعليهم قيوم.

هم وحدهم؟ كلا، هم والأصول التي انحدروا منها والفروع التي تنشأ عنهم إلى ما شاء الله جل جلاله.

هم وحدهم؟ كلا، وعوالم الأحياء الأخرى التي تزحم البر والبحر، وتنتشر في ملكوت نجهل منه أكثر مما نعرف ﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ (**الأنعام**: ١٣).

ما أوضح شيء في عالمنا هذا؟ الشمس في حجمها الضخم، وما يضطرم في كيانها من نار ونور؟

إن الحريق المستعرة في جوفها وسطحها ترمي باللهب على مسافات هائلة هي بعض مظاهر الجبروت الإلهي في التكوين.

فهل بعد ذلك يضعف الإحساس بالخالق ويقوى الإحساس بالمخلوق؟

وحدة الوجود خرافة

إن الشعور بالوجود الإلهي يجب أن يكون حيًّا غامرًا لدى أولي الألباب.

لكن الكون شيء غير صاحبه، والعالم شيء غير الله، ومعرفتنا بالله فيما أوجد لا تعني أن الوجود هو الموجود.

ومن السخف أن يرتكس الفكر الإنساني في هذه الحمأة.

إن الآلة شيء غير من اخترعها، والقصر شيء غير من بناه.

وقد خلقنا الله وكلفنا، ورتب على تكاليفه مثوبات وعقوبات، وأنزل بذلك كتبًا وبعث رسلًا.. فكيف نجرؤ على وصفه بالهزل والتزوير في ذلك كله؟

ولقد أحصى العلماء العناصر التي يتكون منها العالم، وقرروا ما لكل عنصر من خصائص لا تزيد ولا تنقص، فكيف توصف هذه العناصر بعد ذلك بأوصاف الألوهية؟

إن القول بوحدة الوجود هو- عند التأمل- نفي للألوهية وإثبات للكائنات وحدها.

فالماء مثلًا مادة معروفة، وقد شرح الكيمائيون أسلوب وجودها من عنصريها الأساسين.

وهي من قبل ومن بعد لن تكون إلا الماء.

فالزعم بأنها إله أو جزء إله تخرص علمي سيسقط من تلقاء نفسه، وتبقى بعد ذلك العناصر وحدها دون أي وصف إلهي.

ومن ثم قلنا: إن وحدة الوجود عنوان آخر للإلحاد في وجود الله، وتعبير ملتو للقول بوجود المادة فقط وما دام لا يوجد شيء وراء هذا العالم، فالقول بأن الله داخله هو صورة أخرى للقول بنكرانه.

وفلسفة وحدة الوجود، أو خرافة وحدة الوجود، تفكير هندي قديم، والقوم يتصورون أن هذا العالم أزلي أبدي، وأن الأرواح تخرج من أجسادها لتعود في أجساد أخرى- وقد تكون أجساد حيوانات- وأن قصة الحياة تدور في هذا النطاق المحصور، وتبدأ من حيث تنتهي، وهكذا دواليك إلى ما شاء الله، والله- في أوهامهم- هو هذه العمليات المتكررة.

والغريب أن هذه الوحدة الموهومة قد تسللت إلى بعض الديانات السماوية وبين يدي قصيدة لشاعر عربي تصور هذه الأسطورة المنكورة تصويرًا تامًا، قال.

عل الوجود هو الله الذي اتجهت
هذي النفوس إليه بالعبادات
له العوالم أعضاء مترددة
فيها الحياة على بعد المسافات
وما الأثير وما الأجرام سابحة
فيه، سوى الدم، يغلي بالكريات
ما كان قط عن الأشياء منفردًا
بل هن فيه لصون الذات بالذات

❖ ❖ ❖

تعاشق الكل، من أعلى الشموس إلى
أدنى الرمال إلى أخفى الذريرات
لو قال كن، كان للتكميل مفتقرًا
وكان في حاجة الماضي إلى الآتي
سر التحول والتكرار مطردًا
هذي البدايات من تلك النهايات
رباه أشرق لروح منك منبثق
أما أنا فيك من بعض الخليات؟
حاولت ترويض عقلي فاندفعت به
في مدحض زيق بالعبقريات
فخذ بكفي، ولا تغضبك فلسفتي
وعدها لي من بعض الحماقات

وهذا الذي قاله الشاعر حماقة لا ريب فيها، ومن حق رب العالمين أن تغضبه تلك الفلسفة السمجة، وأن يسخط على كل من يعتنقها ويروجها.

ومن العجائب أن بعض المتصوفة من المسلمين قد انزلق إلى هذه الهاوية وينسب إلى الحلاج قوله:

سبحان من أظهر ناسوته

سر سنا لاهوته الثاقب

ثم بدا في خلقه ظاهرا

في صورة الآكل والشارب

حتى لقد عاينه خلقه

كلحظة الحاجب بالحاجب

وقد دفع الحلاج دمه ثمن هذا الحمق.

ولا أدري كيف يقول مسلم، بل كيف يقول عاقل بوحدة الوجود، إن كان حقًا يؤمن بالله ويصدق المرسلين؟

لو كانت الأرض لؤلؤا ومرجانا ما صح أن تكون ذاتا لله، فكيف وهي إلى جانب ذلك حصى وبعر، ولو كانت زهرًا فهناك الشوك، ولو كانت وفاء وأمانة فهناك الغدر والخيانة.

إن الصاروخ المنطلق في مداره شيء غير الإنسان الذي أطلقه، كذلك العالم شيء غير الرب الذي أبدعه وسيره ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ٦٢ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ (**الزمر**: ٦٢، ٦٣).

وأظننا أوضحنا بعد البون بين الإحاطة الإلهية التي يحسها المؤمنون ووحدة الخالق والمخلوق التي يتوهمها الخراصون.

ثم إن العارفين بالله المشاهدين لقيوميته قد يستغرقون في حالات من التأمل العميق تطول أو تقصر، والاستغراق العقلي أو النفسي في أمة ما ليس بدعا في شؤون الناس.

وقد يفجأني أحيانًا أمر من الأمور فأحشد له كل ما في كياني من انتباه إلى أن أفرغ منه.

وللعلماء نوادر في ذهولهم العلمي وغلبة بحوثهم على تصوراتهم.

وليس مستغربًا أن يجتذب الحب الإلهي بعض أولي الألباب فيشغلهم عن ذاتهم، وينتقل بهم من مآرب الأرض إلى أشواق السماء.

إلا أن هذه الأصول عوارض لا تصبغ الحياة الإنسانية طولًا وعرضًا.. وهذه بداهة لا تنال إلا أصحاب السناء الفكري والنفسي.

أي أنها شارات اكتمال ثقافي وعاطفي، فلا يمكن أن يحسها أهل البلادة والقصور، إن التألق طبيعة الشخصية المتقدة لا الشخصية المعتمة.

ويبقى أن نتساءل: ما مدى هذا الاستغراق؟ والجواب أن لحظات الانتباه الذهني موقوتة بطبيعتها، فما يزعمه البعض أنه مجذوب طول عمره إلى الحضرة الإلهية دعوى غير مسلمة.

نعم هناك ألوف المؤمنين المتفانين في مرضاة الله الراغبين إليه البانين حياتهم وفق مراده، ولكن ذاك شأن غير ما نحن بصدده.

والمثال العلمي الأكمل للمعرفة التامة والإقبال العظيم على الله يؤخذ من سيرة رسول الله ﷺ، فإن انتباهه المشدود إلى الله تبارك وتعالى ما أوهى حسه بالحياة ولا علائقه بالخلائق..

ومن هنا فسيرة المجاذيب من المتصوفين الذاهبين عن الوجود المادي، نعدها نحن حالات مرضية لا أمارات صحة.

فإذا انضم إلى هذا الذهول ما يقال من فناء عن النفس أو فناء في الله، وما يضيفه الخيال المعتل في مثل هذه الحالات من صور حلول أو اتحاد، كل ذلك لا يمكن وصفه إلا بأنه اختلال في القوى المعنوية، أو ضرب من الخيال. إن المتفاني في عشق امرأة لا يحوله الهيام إلى ضلع منها أو جهاز في بدنها.. والإيمان صراط مستقيم لا يتحمل ذرة من هذا الاعوجاج.